# النخب الثقافية و مسؤوليتها الإجتماعية والوطنية

بقلم : الدكتورة هيفاء سليمان الإمام
أستاذة جامعية ورئيسة تحرير مجلة وميض الفكر للبحوث

**تعريفات لا بد منها:**

**١- النخب الثقافية:**

النخبة في اللغة هم صفوة القوم وقادتهم وخيارهم. إن دراسة النخبة تعني إلقاء الضوء على مكون أساسي في صنع الواقع السياسي والثقافي والديني في مجتمع ما.

وهي طبقة تتميز من قدرتها على التأثير أكثر من غيرها ومن هنا تأتي مسؤولياتها.

**٢- الثقافة:**

إنّ الثقافةَ نموٌ معرفيٌ تراكميٌ على المدى الطّويل؛ بمعنى أنّها ليست عُلوماً أو مَعارف جاهزة يُمكن للمجتمع أنْ يحصلَ عليها ويستوعبها ويفهمها في زمنٍ قصير، وإنّما تتراكمُ الثّقافة في حقب طويلةٍ من الزّمن حتى تنتقلَ من جيلٍ إلى جيلٍ والثّقافة مرتبطة بالحضارةِ الإنسانيّة إرتباطاً وثيقاً وتمثل القسم المعنوي منها من قيم وعادات وتقاليد وإرث تأريخي .

وقد ساهمتْ الثقافة في التّأثير بالفكر السياسيّ العام في الدّول، وغيّرت في العديدِ من المجالات الفكريّة السياسيّة. وهي شاملة؛ بمعنى أنّها لم تُغفِل أيّ جانب من جوانب الحضارة الإنسانيّة، إلا وأثّرت بها بطرقٍ ووسائل مُتعدّدة.

ويرى بعض العلماء أن الثقافة هي الإستمرار في الفهم، وهي ليست أمانا وإطمئنانا وليست ترفا وهدوءا، وإنما هي العيش في خطر وهى قلق وتوثب دائم . وهي حياة متحركة متفاعلة تدفع المثقف ليس للإطمئنان إلى الواقع وإنما إلى ما يجب أن يكون عليه مجتمعه وعالمه وهي جهد إيجابي خلاق .

وأود هنا أن ألفت الإنتباه إلى أن ثقافتنا العربية والإسلامية لم تزل بالف خير على مستوى القاعدة الشعبية، وذلك بشكل فطري وعفوي ، حيث اننا ما زلنا نحترم القوانين كلها على الرغم من غياب حماتها، وما زالت قيمنا من كرم وتسامح وتكافل إجتماعي راسخة في مجتمعاتنا، طبعا بشكل فطري غير منظم، وذلك بنسبة لا بأس بها على صعيد الأشخاص وليس على صعيد المؤسسات.

وعلى الرغم من كل شيء فأمتنا بما تختزنه من قيم مازالت قادرة على النهوض إن أرادت، وإن توافرت لها الظروف المناسبة. «وذلك لأن لحظة من الظلام لا تعني أن الناس قد أصيبوا بالعمى»

**٣- من هو المثقف النخبوي؟**

المثقف هو الشخص الذي يمارس العمل الذهني والتفكير وينتج الآداب والعلوم والفنون ويخترع التكنولوجيا.

وبعضهم يرى أن المثقف رمز من رموز التغيير، فهو يعمل بدون أن ينتظر المكافأة.

و المثقف هو رجل الإختيار ورسم البدائل لشعبه وأمته، أو هو ذلك الفرد الواعي ما يدور حوله من أحداث بما يمتلكه من حصيلة معارفه، وهو يعمل دائما بموضوعية على خلق حالة من الوعي لدى المواطنين للوصول إلى موقف معين يتفاعل معه في صياغة الوعي المجتمعي لإحداث تغيير في الأوضاع السائدة .

- ومن أهم صفات المثقف الدور النقدي التنويري والإندماج المجتمعي.
- وعند سارتر المثقف ليس مسؤولا عن نفسه فقط، بل مسؤولاً عن كل الناس .

من هنا نستحضر الآية ١١٧ من سورة هود (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) ، إذن لا يكفي أن نكون صالحين، بل علينا أن نكون مصلحين في مجتمعاتنا لننال رضا الله عزّ و جلّ.

و المفكر الأمريكي نعوم تشوميسكي يرى بأن المثقف هو من حمل الحقيقة في وجه القوة من هنا تأتى أهمية الرسالة المنوطة بالمثقف بأن يكون مسؤولاً ، و أميناً، و تقياً ، وذلك لأن الله عزّ و جلّ خصه بظروف وقدرات ومكانة ميزته من غيره من الناس.

- **النخب الثقافية العربية واللبنانية ودورها في المجتمع:**

هناك من يرى أن النخبة الثقافية في الوطن العربي مسخرة لخدمة السياسة والأنظمة الحاكمة.

وتفتقد القدرة على التنوير والتثوير، ولا أمل منها إلاّ بظهور نخبة جديدة تؤسس لمستقبل أفضل، يتمكن بوساطته المثقفون من إنتاج القيم الثقافية الحرة المتحررة من قبضة الحكام. وتحارب كل صنوف الخضوع ومظاهر الإستبداد سواء أكان خارجيا أم داخليا .

- و من المثقفين العرب من يهادن السلطة ويتكيف مع الواقع ، ويعقد مع النظام الحاكم صفقات يتنازل فيها عن دوره التنويري، بل يتحول إلى داعية للنظام ومدافع عن أطروحاته ويبشر بأفكار الحاكم ويروج لها .
- ومنهم من يساهم في عملية تضليل الوعي لدى الجماهير، ويعمل على بث أفكار هدامة لقيمنا، و المؤسف أن يتقبله بعض الناس، لأنهم يعتبروه لسان حال لهم ، و من يقوم بهذا الدور إما جاهل وإما يعرف ويتقصد ذلك وهذه هي المصيبة.
- كما أن هناك نمطا أخر، وهو المثقف المحايد الذي ينأى بنفسه عن الإصطدام، وعندما يخاطب الناس يكون خطابه مجرد أفكار مبسترة لا تحرك في العقل ساكنا .

و هناك من يقول أن المثقف المحايد أخطر من مثقف السلطة ، لأن مثقف السلطة مكشوف لدى غالبية الناس ومكروه منهم دائما، وهم لا يثقون فيما يكتب أو يطرح من أفكار، في حين أن المثقف المحايد له دور يشبه المخدر الذي لا يشفي من الداء، و لهذا قال السيد فضل الله أن الحياد في زمن المفاصل خيانة .

- و هناك من المثقفين ، المناضل والمقاوم والواعي الذي يحمل المسؤولية الوطنية والمجتمعية، وهذا النوع غالبا ما يكون مُحارَبا ومُهمَشا وقليل الحيلة.

وطبقة النخب الثقافية تعيش عزلة في المجتمعات العربية، ومعطلة ثقافيا بشكل شبه كلي. بحسب واسيني الأعرج الأديب الجزائري، الذي وثق هذه الحالة في مقال له، وقال إن النخب الثقافية تجد نفسها أمام مأزقين؛

- الأول يتلخص في كونها لا تنتج معرفة مواكبة لمعضلات العصر الذي تعيشه، لأن أطروحاتها كثيرا ما تكون مرفوضة،
- أما المأزق الثاني فهو أنها حين تتجاوز صعوباتها الوجودية وتنتج هذه المعرفة، فهي لا تصل، لأن قدرة الإستيعاب الجماهيرية محدودة، وغير مهيأة لأي تغيير في الذهنيات، ولا يعود السبب في ذلك إلى مشكلة الأمية وحدها، لكن إلى غياب الاستراتيجيات، والوسائط التنظيمية التي تنقل المنتج المعرفي.

وعلى الساحة اللبنانية فإن الموقف من السياسة قسّم المثقفين إلى ثلاثة أقسام بين مؤيد لتبني آراء ومواقف سياسية ، وآخر معارض لها، و قسم ثالث إختار ما سماه الموضوعية حيث إعتبر أن لا ناقة له ولا جمل فيما يحصل.

فمثلاً: هناك من المثقفين اللبنانيين من وقف عام ١٩٨٢ في شوارع بيروت يحيي المجنزرات الصهيونية التي غزت وطننا لبنان، و بعضهم رشّ الورد على الجنود الصهاينة الغزاة، وإعتبرهم «محررين»، ولا يزال محتفلا بهم حتى الآن بوصفهم رمز لبنان الثقافي.

و في المقابل هناك مثقفون لبنانيون دفعوا حياتهم ثمنا لقناعات وطنية وقومية تقف على النقيض تماما من أفكار أولئك المثقفين المذكورين ، و هؤلاء الوطنيون يحتفل بهم بإطلاق تسمية شهداء الفكر والحرية عليهم.

ويفسر الكاتب والصحفي في جريدة الأخبار بيار أبي صعب الحالة الثقافية والسياسية تلك بقوله إن «الغائية والنفعية جزء من التركيبة اللبنانية». ويضيف في حديث للجزيرة نت أن الشعب اللبناني «يملك ذاكرة ضعيفة» وأنه «شعب تاجر في الأساس».

وأوضح أن لبنان «خليط من التناقضات» وأن «السياسة هنا حرب أهلية دائمة على عكس ما يجري في بلاد أخرى تكون فيها الحياة السياسية خيارا ولعبة ديمقراطية».

أما عن دور الفعاليات والمنتديات الثقافية في لبنان ، وفي الوطن العربي بشكل عام، فهي لا تقوم بدورها المطلوب الذي هو كما ذكرنا التوعية والتنوير ومقاومة الفساد والظلم والعمل على رسم خارطة طريق للخروج من الأزمات ، وفي إنتاج ستراتيجيات فعالة لبناء أقطارها وصناعة حضارتها بيدها وفكرها، أو على الأقل لإدارة الأزمات ألتي تمر بها المجتمعات.

والنخب والقيادات اللبنانية والعربية (كي لا نكون من الظالمين) تكتفي في وقتنا الحالي بأن تقف متفرجة أمام صنائع أعدائها إن لم تساهم بإنجاح مشاريعهم وأهدافهم الإستعمارية التدميرية .

وهنا أود أن أذكر لكم ما قاله أحد الكتّاب: بأن العامة لا تلام بقدر ما تلام النخب من المفكرين والعلماء والقيادات السياسية المؤثرة بمجتمعاتها ، والتي تدعي بأنها ملمة بما يدور حولها ولديها تفسير لكل ما يجري، وهي في الحقيقة تجهل أن هناك استرتيجيات أكثر تعقيدا من مجرد قراءة ما يكتب ومتابعة ما يحدث. ذلك لأن هناك في ستراتيجيات الصراع الدولي من يفتعل الأحداث للتاثير بالأفكار، ومن يستعمل الأفكار لخلق الأحداث،

وهناك من يرصد ديناميكيات التفاعل الإجتماعي والتاثير بخلفيات الوعي الجمعي بوساطة السيطرة على وسائل الإعلام والتحكم بأدوات التحليل، والضغط الخفي بوساطة التدخل بالأحداث ومن ثم التحكم بالنتائج والسلوكيات غب الطلب .

كما يتحدث في الكتاب نفسه عن ستراتيجية الفوضى الخلاقة التي نفذتها إدارة الرئيس جورج بوش الإبن بوساطة دراسة لروبرت ستالوف، والذي حصل على معلوماتها من مركز دراسات الشرق الأوسط في واشنطن، وهذه الدراسة تحدثت عن هذه الاستراتيجية والتي يعتبر أن أهم ما تختزنه في جوهرها هي ديناميكية التفاعل عبر الحدود السياسية من القطر اللبناني إلى باقي الدول العربية وبالعكس، كما وتضم الإعلام مع السياسة، و الأفعال الحربية مع أدوات التحليل، والأفكار السياسية مع الأفكار الدينية والعقيدية، و الهويات الوطنية مع الهويات الفرعية، مع الدينية والمذهبية منها، فضلا عن الهويات القومية.

وتحدث ستالوف عن هذه الاستراتيجية بخصوص لبنان فقط وكأنه نقطة إنطلاق، ومنه و بوساطة أحداثه تستهدف المنطقة بأكملها، ومن هذا الإستهداف نحصل على نتائج، والهدف من النتائج إعادة صياغة الوعي

في الوطن العربي.

واستراتيجية استالوف ترتكز في نظرية التفاعل الكيميائي بين المكونات للوصول إلى المكون المنشود أي تفكيك المكون لإعادة تركيبه بشكل جديد يحقق أهدافا غريبة عنه.

وأمام هكذا تخطيط واضح الأهداف والأبعاد، وهكذا وعي لقوانين التفاعل العابر للحدود والمنتشر على أكثر من ساحة أو صعيد أو إختصاص علينا أن نسال أنفسنا كمثقفين أين دورنا؟؟

**هل واجهنا هذه المخططات بمخططات مماثلة معاكسة تجمع كل هذه الأمور ؟**

وهل تحركنا على مستوى السياسات وعلى مستوى الأفكار والإعلام والحراك الشعبي والعمل العسكري بطريقة مؤثرة إقليميا عابرة للحدود ؟

**و هل عالجنا أمراضنا لكي لا نكون أداوات طيعة بيد الذين يخططون للفوضى الخلاقة في منطقتنا؟**

أم أننا دخلنا الصراع بأمراضنا ذاتها، ونحن نظن أن فيها خلاصنا وفيها أدوات نصرنا، وحينها نكون كمن يرقص على وقع موسيقى الأعداء وينفذ ما يرسمون له؟

- **أين هم مثقونا ونخبنا ومفكرونا؟**

- أين هي مراكز أبحاثنا ومؤسساتنا الأهلية والإجتماعية والتي تُعنى بالثقافة وتقودها النخب

إن فئة لا تحمل مسؤولية وطنية وإجتماعية ولا ترى لأبعد من أنفها تسيطر على الجمعيات والنوادي والمؤسسات الإجتماعية والثقافية هي حالة خطرة جدا على تنوير المكونات كافة.

فالمنتديات والجمعيات الثقافية والإجتماعية في لبنان الآن تعاني من إنحدار فكري استراتيجي، حيث أنها وجدت في جمعيات الأمم المتحدة والدول الغربية مصدر حل مهم لأزماتها المالية، و وقعت تحت إغراء الهبات المالية السخية، والمشاريع التطبيعية في مجتمعاتنا، وخضعت لشروطها المدروسة، حيث أن هذه الجمعيات لا تمول إلاّ ما يخدم أهدافها المشبوهة، وغالبا ما تكون غريبة عن حاجاتنا.

وهذه الجمعيات تعمل كالمخابرات بين مكونات مجتمعنا وبين أسره، وقد تزرع الشقاق والعنف داخل الأسرة الواحدة، وهي تنخر في مجتمعاتنا العربية واللبنانية بشكل سافر بدون حسيب أو رقيب.

وهنا نستخلص أن غياب النخب الثقافية عن أكثر الملفات الثقافية إثارة للجدل، ويرى مثقفون أن عودة النخب إلى دورها الحقيقي المؤثر تبدأ بالإعتراف بالقصور ومراجعة الذات.

وعن هذا يقول الدكتور حسن مسكين :

«من الطبيعي أن يقف المثقف وقفة تأمل ومراجعة للذات، يقدم فيها حصيلة إنتاجه، ومواقفه وتصوراته، ويجيب عن أسئلة حاسمة، من أبرزها:

- أما آن للنخبة المثقفة أن تعود لتمارس دورها في التوعية والمبادرة والتوجيه ؟
- أما آن لها أن تتخلى عن دور المتفرج، بعد أن إستكان معظم روادها، وإكتفوا بلعب دور المشاهد أو المهزوم، الذي أعلن إستسلامه الكامل من كل ما له علاقة بالفكر النقدي، والثقافة البناءة، والمشاركة الفعالة؟
- أم أن المثقف إستكان للراحة الشاملة، فأعفى نفسه من مسؤولية إختياره طوعا، ثم ما لبث أن تنازل عنها مجبرا أم مخيرا؟».

وهنا يعد الدكتور حسن مسكين أن من المفارقات المميزة للمثقف العربي :

١- رغبته الملحة في التغيير، لكن ذلك يكون من منطق الوصاية لا المحاورة؛ بوساطة فرض حقائقه الثابتة،

٢- وهو يهدف إلى التأثير بالعامة، وعينه

على الخاصة في الوقت نفسه،

٣- ويقول بالإنتماء إلى العامة، وفي ذاته الداخلية إحساس بالفوقية والتعالي على العموم.

وفي هذا المجال إود أن أحدثكم عن كتاب (نظام التفاهة) للدكتور آلان دونو، ترجمة د.مشاعل عبد العزيز الهاجري

وهذا الكتاب يدور على فكرة تتعلق بسيادة نظام أدى تدريجيا لسيطرة التافهين على جميع مفاصل الدولة الحديثة.

وفي هذا الكتاب يقوم الكاتب بنوع من التمرين الفكري بشأن «هذا التحدي الهائل، والغامض مع ذلك» الذي يصيبنا وجميع المعاصرين. ويقصد «التفاهة» المنتشرة. وإذا دققنا في الأمر سنجد أن لبنان قد يكون من البلدان الغارقة بالتفاهة على المستوى السياسي والسلطوي والإجتماعي والبيئي..

وكما يقول الكاتب : هناك أمثلة كثيرة لا تنضب عن مساهمة التفاهة في فساد اللغة والأفكار والمثقفين والوسط الجامعي والإقتصاد والفن والثقافة والدولة.

هذا وقد إبتكر الكاتب مفهوما مطابقا لما يسود عالمنا ككل والوطن العربي بشكل خاص؛ فكتابه الذي نشرت ترجمته في العام ٢٠١٥ مما يعني أنه كتب قبل هذا التأريخ.

لذلك من الطبيعي أن تحتفل به بعض النخب العربية في ظل التدهور المريع لأوطاننا،

فمضمون هذا الكتاب المهم والقيم -على الرغم من مناقشته للتفاهة بكل أبعادها- يبحث :

سيطرة التافهين على العالم :

حيث يقول لقد ربح التافهون الحرب ، وسيطروا على عالمنا وباتوا يحكمونه. وحلت القابلية للتعليب محل التفكير العميق !

و يتوجه ساخراً إلى المثقف بقوله:

لا لزوم لهذه الكتب المعقدة. و لا تكن فخوراً ولا روحانياً. فهذا يظهرك متكبراً. ولا تقدم أي فكرة جيدة. فستكون عرضة للنقد. ولا تحمل نظرة ثاقبة، و وسع مقلتيك، و أرخ شفتيك، و فكر بميوعة - أي مرونة وقابلية للتشكل - وكن كذلك. فعليك أن تكون قابلاً للتعليب، فلقد تغير الزمن، بعد أن أمسك التافهون بالسلطة.

٣- كما ويذكر أن من أسباب سيطرة التافهين على العالم:

أن (المهنة) صارت (وظيفة) وليست حرفة. وصار شاغلها يتعامل معها كوسيلة للبقاء لا غير. فقد إنحدر مفهوم العمل إلى (المتوسط). وصار أشخاصه (متوسطين)، بالمعنى السلبي للكلمة.

**أما من ناحية السياسة :**

فيقول إن السياسة إستبدلت بمفهوم (الحوكمة)، وإستبدلوا الإرادة الشعبية بمفهوم (المقبولية المجتمعية)، والمواطن بمقولة (الشريك). وفي النهاية صار الشأن العام تقنية (إدارة) لا منظومة قيم ومُثلا ومبادئ ومفاهيم عليا. وصارت الدولة مجرد شركة خاصة، و أصبحت المصلحة العامة مفهوماً مغلوطاً لمجموع المصالح الخاصة للأفراد. وغدا السياسي تلك الصورة السخيفة لمجرد لوبي ناشط لمصلحة زمرته، وأصبحت قاعدة النجاح هي أن (تلعب اللعبة) ، ففي ظل نظام التافهين تحول النجاح أن تلعب لعبة: من هذين المنطلقين، تنميط العمل وتسليعه وتشييئه، وتفريغ السياسة والشأن العام، و هكذا صارت التفاهة نظاماً كاملاً على مستوى العالم. وصارت قاعدة النجاح فيها أن (تلعب اللعبة).

٥- أما الخبير فوصفه بأنه أفضل تجسيد لنظام التفاهة:

فجامعات اليوم صارت مصنعاً للخبراء، لا للمثقفين ! حتى أن رئيس جامعة كبرى قال مرة أن «على العقول أن تتوافق مع حاجات الشركات»

فنظام التافهين هو حقبة من تطور النظام الإقتصادي الرأسمالي:

ومن هذا التحليل يتضح لنا أن نظام التافهين ولد في الدول الغربية الرأسمالية، و إنتقل إلينا وهكذا صار يشمل الدول النامية ودول العالم الثالث، التي تطبق النظام الإقتصادي الرأسمالي تحت شعارات خادعة عن : الإنفتاح الإقتصادي، والإصلاح الإقتصادي والخصخصة، والتحرير الإقتصادي، الليبرالية الجديدة، فنظام التافهين لهو نظام عالمي يشمل الدول المتقدمة والنامية على حد سواء.

ويؤكد الكاتب على إرتباط نظام التافهين بالإستبداد:

ففي ظل الإستبداد يتقدم المنافقون، ويدعم هذا التقدم أن الأنظمه الإستبدادية تستند إلى قاعدة الولاء وليس الكفاءة ، كما أن النفاق صفة مميزة لنظام التافهين.

- و السؤال الذي يطرح نفسه كيف الخلاص؟

ويعود الدكتور آلان دونو ليقول أن نظام التفاهة هذا فاشل بيئيا وظالم إجتماعيا.

فهو يسمح لخمسين في المئة من خيرات كوكبنا بأن تكون حكراً على واحد في المئة من أثريائه.

لذا فمن المطلوب أن نقاوم التجربة والإغراء وكل ما لا يشدنا إلى فوق. وأن لا نترك لغة الإدارة الفارغة تقودنا. بل المفاهيم الكبرى. وأن نعيد معاني الكلمات إلى مفاهيم مثل المواطنة، والشعب، والنزاع، والجدال، والحقوق الجمعية، والخدمة العامة والقطاع العام والخير العام.

وهنا أود أن ذكر لكم ما قالته أمامنا السيدة صقر رئيسة الجامعة الأمريكية للتكنولوجيا A U S T: أثناء عشاء خيري لدعم أطفال السرطان في كازينو لبنان:

إن الجامعات الأمريكية في العالم كله عقدت مؤتمرا عاما لتناقش ما قدمته هذه الجامعات وسياساتها للبشرية والإنسانية فوجدت أنها وللأسف قدمت للأجيال الثالوث المدمر (السلطة والمال والمتعة) . و هذه هي سياسة السوق وما تحمله من ربح مادي قاتل للإنسانية .

**وأخيراً:**

إن إهمال اللغة القومية وإحلال لغات أخرى مكانها في المخاطبة اليومية والتدريس والإنتاج الثقافي تحت ستار الدخول الخادع في العالمية، يقود حتما إلى تبعية ثقافية يصعب تجاوزها أو التخلص من أضرارها الكبيرة. و هذا ما يبدو واضحا من أن تبعية العرب الثقافية للغرب قادت إلى الإستلاب في نواحي عديدة، وتمخضت عن إنتاج ثقافي هزيل باللغة العربية. علما أنه في ذاك اللقاء، فإن غالبية المتنورين العرب قد شددوا على ضرورة التمسك باللغة العربية لكي تلعب الدور الأساسي في المحافظة على هويتهم المميزة وخصوصيتهم الثقافية.

**المراجع**:

١- آلان دونو، كتاب نظام التفاهة ، ترجمة وتعليق الدكتورة مشاعل عبد العزيز الهاجري، دار سؤال؟ -لبنان، الطبعة الاولى ٢٠٢٠.

٢- ألبير داغر، النخبة في لبنان ، جريدة الأخبار، الأربعاء ١٨ كانون الأول ٢٠١٩

٣- بدران مسعود بن الحسن، النخب المثقفة ودورها في تحقيق نهضة الأمة ، مقال نشر في مدونة الجزيرة ٢٠١٧/١١/٢١

٤- حسن مسكين، أزمة النخب العربية الثقافة والتنمية، مؤسسة الرحاب الحديثة ٢٠٠٧

٥- محمد نبيل الشيمي، النخبة وتأثيرها في تكوين وإستقرار المجتمعات وتشكيل نسق الحكم والفكر، المركز الديمقراطي العربي، ٢٧ يناير ٢٠١٦

٦- مسعود ظاهر، النخب الثقافية العربية وإشكالية التصدي للتدمير الثقافي، جريدة النهار ٣٠ ايار ٢٠١٥